في إنتاج النص وتأويله
-مقاربة ابستيمولوجية-

د. نعيمة سعدية
جامعة محمد خيضر- بسكرة.

توطئة: إن السؤال حول كيفية تلقي النص وشروطه، لا يقل أهمية عن السؤال حول شروط إبداعه وإنتاجه وتأويله؛ إذ نحاول في هذا السياق، الكلام عن نص الإنتاج أو " إنتاج النص" و عندما تساؤلنا كيف ننتج نصا؟ كيف يمكن لنا بناءه وترتيبه و على أي قاعدة ينتج، كان لابد أن يولد تساؤل آخر يناظر الأول: كيف يمكن بمعرفة نص الإنتاج، أن نحقق نص التأويل؟.

1- في إنتاج النص:

إن أصعب مرحلة في تكوين النص هي تلك التي تتحول فيها عملية تأليف النص وتوليده وتشقيق المعنى فيه إلى عملية ذاتية تحكمها الرغبة في أن يؤدي النص ما أريد له أن يؤديه، كنص موحد أو فسيفساء من رموز و إشارات وعلامات لغوية و غير لغوية، تحيل إلى مدلولات باطنية كامنة في جسد النص، تحدد لها موقعا مركزيا في العمارة النصية؛ فتكون –بذلك- المحور في هذا العالم ومركز الثقل في هذه الحمولة المعرفية ذات الخلفيات المرجعية اللغوية وغير اللغوية وهذه المرحلة بشكل أو بآخر تعمل على إبعاد النص من السقوط في دائرة قراءة ظاهرية ساذجة وسطحية، التي تفتقد أي قدرة على تقفي أثر النص وإعادة إنتاجه كمحاولة جادة ضرورية لفهم النص كما يمكن، بناء على ما أمكن، من حيث

أن" لا شي يخلق، ولا شيء يفنى، وكل موجود متحول؛ فالخطاب الأدبي تحويل لموجود"[1] وكذلك النص في ظل ما دعت إليه إنتاجية النص.

وكما يرى كبيدي فارغا(A Kibédi Varga) أي أن كل نص له طابع انجازي فارغ "[2]، أي أن كل نص يتولد من نظام يولد بدوره مجموعة أخرى من النصوص و أنه (أي نص) إنجاز/ استعمال/ تلفظ، يمكن له أن يقدم إمكانيات تعبيرية كثيرة في لغة معينة، حتى، لأن لكل نص تركيبه النحوي و الصرفي المنفرد و المتميز(أي نحوه الخاص)، باعتبار الإنتاج عملية تتميز ببراءة خلقها و بنائها (أي إنتاجها).

ومن هذا المنطلق، تتحكم في إنتاج النص عدة عمليات لغوية و نفسية واجتماعية ومعرفية تشكل من الأجزاء وحدة منسجمة قائمة على قواعد تركيبة و دلالية تداولية معا، ويؤدي الفصل بين هذه القواعد أو الاكتفاء بقسم منها إلى خلل حتمي في التفسير، لأن عمليات فهمها و تفسيرها لا تقل عن عمليات إنتاجها مرة أخرى، و أن الثوابت المتمثلة في أبنية النصوص تختلف عن المتغيرات المتمثلة في أشكال الفهم المتباينة، كون "النص بنية دلالية تنتجها ذات" تفاعلت وفعلت. باعتبار" أن المتكلم الذي ينتج نصا، يستعمل معارف مختلفة يمكن أن تنتظم في ثلاث أنساق من المعارف هي:علم لغوي/علم موضوعي أو موسوعي/علم التفاعل الذي يشمل علم الانجاز النظري/ و كذلك العلم الخاص بالمعايير الاتصالية، وعلم ما وراء الاتصال بوصفه علما خاصا بضمان التفاهم و كذلك منع نزاعات الاتصال و إزالتها، وعلم أبنية النص الشمولية أو أنواع النص.

وإذا كانت النصوص لا تنتج أصلا ببساطة، بل تنشأ عبر عمليات بنائية معقدة، فان السؤال الذي يطرح نفسه هنا هو أي العلوم يكون ضروريا لكي ينتج النص، وأي الوحدات التمثيلية تعد صفات مميزة لانساق العلم أو المعرفة المختلفة، نتيجة فيما يلي إلى مشكلة معالجة النص، التي وضعت في الآونة الأخيرة في مركز اهتمام الدراسة النصية، و وصف العلم،

وتمثيل العلم و كذلك تفعيل العلم لعمليات إنتاج النص، وقد تساءلا فيهيفيجر وهاين منه عن هذا، فقدما محاولة اقترحا فيها أهم العلوم التي يتكأ عليها منتج النص، ليحقق غاياته، فيما يلي:

أ.العلم اللغوي:

لإنتاج أي نص نحتاج إلى علم قواعدي و أيضا معجمي، ليكمل المنتج معارفه، مثل كيف يحقق جملة خبرية، وحسب أي القواعد يجري الإضمار، كيف يتم توزيع معلومات أساس القضية – الموضوع الذي يخطط له بالتوافق مع مشروع الحدث- على القضايا، أي على الوحدات الدلالية الأولية في الجمل المفردة، وحسب القواعد يمكن إفهام السامع، ما إذا كان شيء معين، يتكلم عنه في النص،معروفا من قبل، أو ما إذا كان شيء قد سبق ذكره...الخ، و أخيرا يتبع العلم اللغوي أيضا علم الوحدات المعجمية التي يتم عبرها إيضاح المواقع النحوية في بناء الجملة، و كيف تربط الجمل بعضها ببعض، وبأي القواعد الصوتية يمكن إبراز عناصر الجملة بشكل خاص، أي كيف يتم النبر...الخ؛ فلأجل إنتاج النص يلزم وجود محتوى واسع جدا من القواعد اللغوية و الوحدات، التي تحدد البناء الصوتي و النحوي والدلالي للأقوال التي تكون النص، لان النصوص يمكن أن تتكون من قول واحد في حدها الأدنى، لكنها في العادة تشكل من تتابع أقوال، يتم فيها رسم مضامين النص، فإننا نحتاج أيضا إلى معرف عن كيفية إظهار العلاقات بين الوحدات الدلالية في الأقوال، ومعارف عن ربط الوحدات الدلالية الأولية في مركبات، وكيف يتم دمج السياقات في النص على شكل شبكة من الروابط الدلالية[3].

وفي عملية إنتاج النص "يتم التوليد اللغوي بوصفه اختيارا من نظام الإشارة اللغوي لفئة اجتماعية بوصفها جماعة اتصالية، وتشكل القيود الاجتماعية والنفسية والمقامية التي تؤدي فيعها اللغة- كما هو معروف – الظروف الكلامي الذي يقدم الشرط الفيصل لأداء

نوع محدد من النصوص؛ و ذلك لارتباط "اختيار الترتيبات الإجبارية أو الاختيارية المحددة من النظام النحوي للغة بالأدوار اللغوية التي تنظم حسب المقتضى أو الهدف، و تتفاعل مع أنواع النصوص"[4]. وهو ما يحدده العلم الموضوعي.

فعندما يشرع المنتج في إنتاجه، إنما يجري تجاربه عن الأشياء في داخل عقله، يبني بنية من الأفكار أولا، من طوب و طينة عقلية، أو من معاني الطوب والطينة، فإن صلحت هذه العملية في العقل، يقوم بإجرائها في الواقع والعمل، وإن لم تصلح لاستحالة فكرية غضّ الطرف عن عملها في الواقع، ولا نقصد من هذا أن تعامله بالفكرة والمعنى كان دائما مصيبا، أو كان دائما ينطبق على الواقع وإنما نقصد أنه استطاع أن يوجد لكل شيء مادي فكرة في ذهنه"[5]؛ فأول البناء بالتأكيد – مشروع البناء- أو بناء الفكر والعقل، وهذا يقوم بالطبع على مواد أولية (تعدّ وفق طرح يعقوب فام" صور ذهنية/ عقلية للأشياء)؛ فيتناول الذهن المعاني والمواد الأولية ويبني بها عمارة نصية تختلف ألوانها، وهذه هي المرحلة الثانية، أي ما بعد مشروع البناء" وهو البناء الفعلي الذي يكتب له قدران المطابقة أو المخالفة ولكنه في الحالتين يكون باختيارات جديدة وأفكار جديدة ورؤى جميلة وبطريقة شاعرية؛ لذلك يقول **فوكو**: " إن الخطاب شيء من الأشياء و هو ككل الأشياء موضوع صراع من أجل الحصول على السلطة... وهو ليس فقط انعكاسا للصراعات، بل هو المسرح الذي يتم فيه استثمار عنصر الرغبة، فهو ذاته مدار الرغبة و السلطة، و بلفظ أدق هو المدار الحاسم للسلطة والرغبة"[6].

ب. العلم الموسوعي أو الموضوعي:

وأول طور في إنتاج النص هو في العادة طور التخطيط ومقصد المنتج هو هدف ما من خلال النص، كنشر المعرفة أو تحقيق الانسجام مع خطة ما، أي يعد إنتاج النص هدفا فرعيا في السبيل المؤدي إلى الهدف الأساسي، وفي وسع المنتج، بالاعتماد على تحليل

الوسائل والغايات أن يحاول تقدير أي من النصوص الممكنة هو الذي سيقدم أكبر الإسهامات في تقليص الفروق القائمة بين الحالة الراهنة و حالة الهدف[7].

والقيمة التي يعطيها العلم الموسوعي أو الموضوعي لقضايا معالجة النص من الأمور التي لا جدال فيها، أما أن كان مبررا أن يعد "العلم الموسوعي" حقل معرفة قائمة بذاته، فهي مسألة تتوقف الإجابة عنها على أي الفرضيات يتم اختيارها فيما يخص نمذجة المعجم و العلم اللغوي لقضايا معالجة النص، العلم المعجمي، أي العلم الدلالي، يعد اليوم كثيرا العلم الغالب الذي يملكه أعضاءه أية جماعة بشرية معينة، و يكون لديهم عند التمثيل الدلالي في التدوين المعجمي، هذا العلم الغالب، سيتم إلغاؤه بواسطة ما يسمى العلم الموسوعي الذي يقود بالضرورة إلى أن يقبل بجانب المعجم تخزين علم آخر في الذاكرة يشمل تلك المجالات المعرفية التي يمكن أن تسمى العلم الموضوعي أو علم الخبراء[8].

ويذهب دافيد روملهارت (d. romlhart) مسرفا في التشدد حين يقول: "تعد عملية الاستيعاب مطابقة لعملية انتخاب المخططات التصويرية والتحقق منها في محاولة تفسير الموقف أو النص الذي يراد فهمه؛ لأن انتخاب المخططات والتحقق منها -في اعتقاده- يساهمان في الاستيعاب دون أن يكونا مطابقين له. ويجد المرء مصالحة مطردة بين المعرفة التي يعرضها النص وبين أنماط المعرفة التنظيمية المختزنة عند الشخص الذي يفهم النص وطبعه ومزاجه"[9]. وللمكون النصي-في هذه المرحلة- دور في تركيب الرسالة.تتكون من موضوع ومحمول.واختيار العنصر الموسم له وظيفة تماسكية cohésive، تلفت انتباه العنصر الذي وضع في غير موضعه، و علاقته بالعناصر الأخرى، كما تتصل بتقسيم عنصري القضية إلى معلوم و هو ما يفترض المتكلم أن السامع يعرفه، وجديد، و هو ما يرد المتكلم الإخبار به أو يفترض أن السامع لا يعرفه.[10]

ج. العلم التفاعلي:

وبعد مرحلة التصور تأتي مرحلة التطوير، التي يمكن الانتفاع بها في توسيع الأفكار الناتجة و تخصيصها و تفصيلها و ربطها الواحدة بالأخرى، و في وسع المرء أن ينظر على التطوير على أنه البحث في فراغات المعرفة المختزنة أي في تشكيلات المحتوى الذهني ذات التنظيم الداخلي بفضل المسارات الدلالية، التي تجعل النص إعلاميا ذا تشكيلات جديدة في عالم النص المرتبط به[11]؛ فالنص من الوجهة العلاماتية الاجتماعية حدث تفاعلي évent interactive، ولذلك فالهيئة الأساسية التي يتخذها النص هي الحوار dialogue، أين يتفاعل المتكلم والمخاطب.

د. علم الانجاز النظري:

إن قصد أي متكلم من إنتاج نص ما، إرادة إحداث أثر معين، كما يريد به مثلا إحداث ردود فعل معينة لدى المتلقي أو التوصل إلى حالات معينة في محيطه الطبيعي أو الاجتماعي. تجعل تصرفات المشتركين الآخرين في الاتصال ضرورية، عند ذلك يمكن الانطلاق من أن المتكلم في جماعة معينة يملك المعارف الخاصة بأن لديهم معارف عن نوعية الحالات التي يمكن أن تحدث في مواقف ملموسة معينة و عن طريق أقوال لغوية معينة تظهر نية المتكلم في موقف ما بقول معين، لتتم نمذجة العلاقة بين علم التفاعل، أي العلم الخاص بالسلوك اللغوي، و العلم اللغوي والأدبيات الصادرة من المتكلم والسامع والهدف:

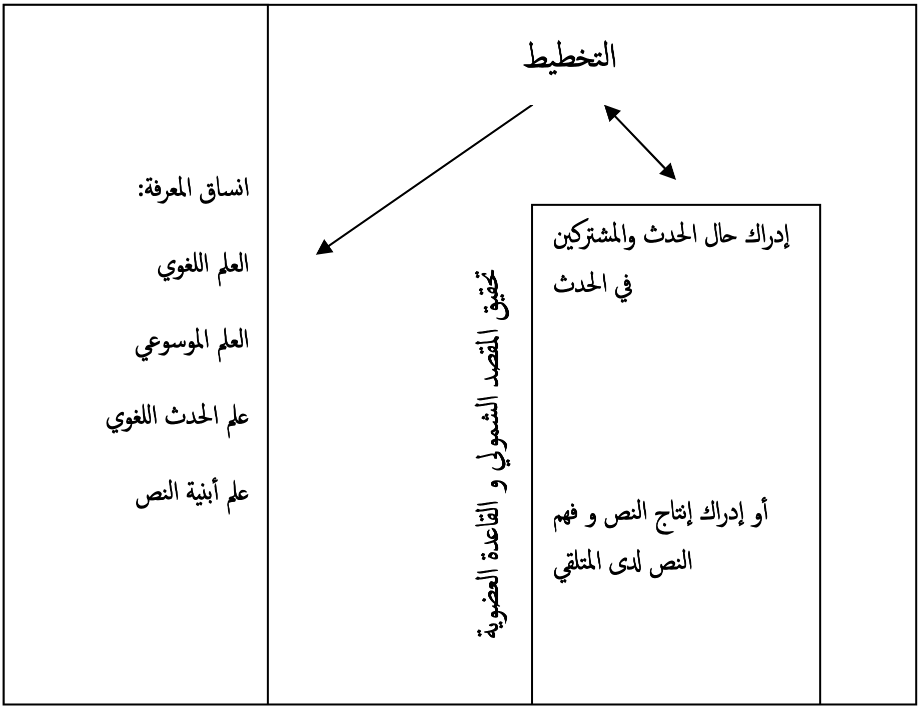

النص بوصفه بناء ذا جوانب متعددة تظهر فيه أنساق المعرفة المفردة[12]

وباعتبار أن النص يؤلف نظاما ذاتي التنظيم فهو لا ينأى يقوم بتنظيم وظائف وقائعه المكوّنة له، و كلما خرجت واقعة نصية عن أنظمة معرفة المشتركين للغة النص ومحتواه وغايته تعرض استقرار نظام النص للاختلال، و استلزم الأمر استعادة الاستقرار بواسطة التكامل التنظيمي مع تلك الواقعة أي بواسطة إضافات وتعديلات لمخزون المرء من المعرفة؛ وإنما تسدّ السبل أمام استغلال النص إذا أخفق التكامل التنظيمي في العمل، و في الأحوال العادية، يحافظ المشتركون على توازن النظام بمحافظتهم على استمرار الخبرة المعرفية و يتم ذلك باكتشاف الصلات بين كل واقعة ذات معنى و سياق تلك الواقعة[13].و من نماذج المقترحة للإنتاج النصي-كذلك- النموذج الذي قدمه John Hayes & Linda flower(1989). و هو على النحو التالي:

نموذج إنتاج النص لـ (فلور- هايز)

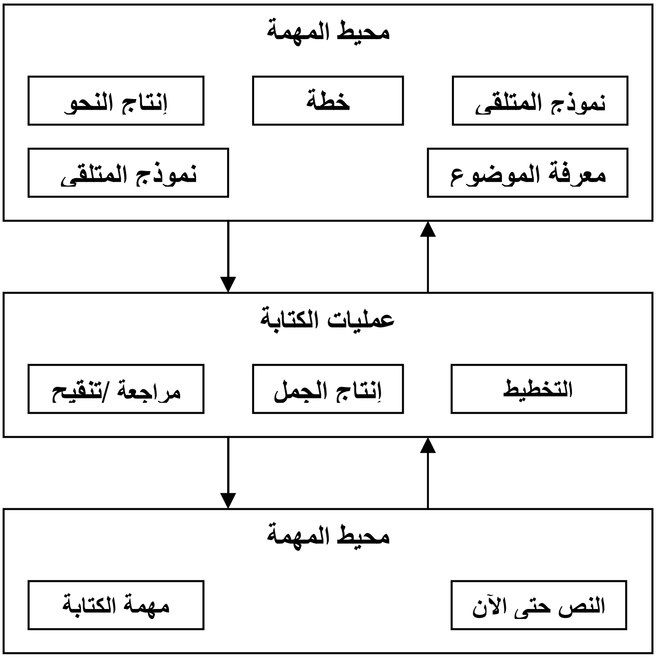

يشعر القارئ أن نموذج (فلور- هايز) يتكون من ثلاثة أقسام؛ قسم يمثله المنتج ويحوي معرفته بالمتلقي الذي يتجه إليه الإنتاج/الكتابة، ومعرفة الموضوع المقدم، ونوع النص وأعرافه من علوم مصاحبة فصلها الثنائي فيهيفيجر وهاين منه على أكمل وجه. وقسم آخر بعملية الإنتاج/الكتابة نفسها' حيث يراعي أثناء عملية التفكير و التخطيط اختيار المعلومات، التي تتم صياغتها في شكل إنتاج جمل، ثم تتم عملية تحرير الكتابة في شكل مراجعة، غالبا ما تجر معها أفكارا جديدة تضاف إلى النص. وقسم ثالث؛ يوجد به محيط المهمة ويتضمن العناصر الخارجية بالنسبة للكاتب التي تؤثر في عملية الإنتاج/ والكتابة كما يتضمن أيضا هدف النص.

كما يوضح النموذج أن المتكلم الذي ينتج النص يتبع دائما قصدا أو هدف اجتماعيا، يتحقق من خلال معلومة عن المحيط أو من خلال الوعي بإحدى الحاجات. لذلك يمكن للمتكلم مثلا أن ينتج نصا ليبلغ سامعا معلومات معينة، أو ليحصل على بعض المعلومات. أو ليحفز سامعا إلى عمل فعلي، أو يشجعه على انجاز نشاط، أو ليقنع سامعا، أو ليصنع لديه أحاسيس جمالة معينة، أو ليطلب منه إظهار رد فعل محدد، أو ليترك شيئا... الخ. من هذا التوصيف غير الرسمي و غير الكامل بأي حال للنوايا الممكنة التي يستطيع المتكلم أن يربطها بإنتاج النص يمكن التعرف على المجالات الوظيفية التالية على أنها أهداف اجتماعية ممكنة:إبلاغ المعلومة./ التعلم./ إصدار تعليمات الحدث./نصوص لإنتاج جمال أدبي./ الإقناع بواسطة النصوص. و هذه الوظائف يمكن معها استنباط ثلاث صفات أساسية لتوصيف إنتاج النص:

أ-يعد إنتاج النص نشاطا لغويا يخدم أهدافا اجتماعية و يكون ذلك مرتبطا-غالبا- بسياقات نشاط معقدة.

ب- إنتاج النص نشاط واع و خلاق، يحتوي على الوسائل المناسبة للإنتاج و دائما ما يكون نشاطا مقصودا من المتكلم، يحاول السامع أن يفهمه من خلال الأقوال اللغوية.

ج- كما يعد إنتاج النص دائما نشاط تفاعل مرتبطا بالشريك و يكون دائما بشكل نسبي من شركاء الاتصال الذين يتعلق بهم النشاط اللغوي.

هذه الصفات النوعية الثلاث (الهدف الاجتماعي- القصد- التفاعل) تعد الجوانب الجوهرية لإنتاج النص، أو الصفات الأساسية للنصوص بصفة عامة[14]، و انطلاقا من الصفات الأساسية لإنتاج النص يمكن القول إن إنتاج النص هو نشاط مخطط له[*]؛ حيث تشكل خطة النص تمثيلا ذهنيا للهدف الذي ينفذ بنص للوصول إلى هذا الهدف، فتحتوي

بذلك خطة النص على النتيجة، و تحتوي أيضا على الطرق التي يمكن بواسطتها الوصول إلى هذه النتيجة فالنصوص تتابع من الأقوال التي تنتج من متكلم لتحقيق أهداف معينة، و يمكن للمتلقي التعرف على قصد المنتج اعتمادا على القول، أو بمراعاة العوامل السياقية؛ كما أن البنية النصية –وفق هذا النموذج- بنية معقدة ذات أبعاد أفقية و تدرج هرمي، تحتاج إلى ذلك الخليط المتكامل من علم النحو و علم الدلالة و علم التداولية، و التي اختصت لسانيات النص بقدرة استيعابه.

ويمكن أن تشكل خطة إنتاج النص تمثيلا ذهنيا للهدف و الحدث الشمولي الذي ينفذ بنص للوصول إلى هذا الهدف، تحتوي خطة النص بذلك النتيجة المعدة مسبقا و أيضا الطرق التي يمكن بواسطتها الوصول إلى هذه النتيجة عل الحالة المعنية. أما العمليات الذهنية التي تطور بناء عليها خطة النص ثم أخيرا تحقق من خلال أقوال لغوية، فتثبت في النص بطريقة خاصة جدا[15]؛ باعتبار أن إنتاج النص لا يحدث مطلقا دون شروط، بل هو نشاط مخطط له، و بواسطته يجب أن تصنع حالة مرغوبة لدى المنتج، لذلك تهدف هذه المعالجة إلى رصد بعض الممارسات الإجرائية التي شملت النص؛ باعتباره موضوعا تجاذبه منظومة مفاهيم، تعلقت بتلقيه: قراءة و تحليلا، من جهة، و لأنه بنية لغوية أو جهاز تنظيري انبثق عن نشاطات معرفية مختلفة، حددت خصوصيتها في نظام شامل هو الثقافة التي تشكله وتشكل منها.

أما فان دايك Van dijk فقد قدم عدة نماذج نصية،و نظرات مختلفة حول دراسته النصوص و صفها و تفسيرها – كما بينا في أكثر من موضع – و قد لوحظ أنه اعتمد في نماذجه على عناصر لغوية، فأدخل فيها مكونات نفسية و منطقية– دلالية و اتصالية– وتداولية، إلى جانب المكونات التحويلية و الدلالية – التوليدية، و قد افترض فيها بوجه خاص – كما يرى سوينيسكي – امتداد بنية كبرى نصية (في شكل فروض مختصرة)،

بوصفها بنية عميقة دلالية للنص، إلى نماذج نصية و أنحاء نصية، و اشتقاق البنية السطحية للنص منها من خلال قواعد تحويلية، تحدد عوامل انجازيه (امتدادية) و صياغة (مكانية وزمنية..الخ)من جهة، فقد طالب 1982 في تعليل الحكايات (من خلال نظرية الحدث) بمراعاة أنماط الحدث وأوصافه و خطابه والمقولات السردية الكبرى (الشرح و التركيب والتفكيك)، ومن جهة أخرى[16].

ويرتبط كل بناء بمضامين معينة، لذا يجب أن ينظر إلى اختيار القضايا في إطار الإسهام الاستراتيجي المختار للتنشيط، مثلا في تحديد عدد المعلومات ومضمونها، والتي يرى الكاتب أهميتها في سياق معين لضمان نجاح نقل المعلومات، والإستراتيجية الأخرى الهامة للكاتب تمكن في إجراءات للتابع أو تعاقب الوحدات التي يراد توضيحها بشكل خطي للنص المخطط له، بما يحقق درجة معينة من ثبات المعنى وقابلية الفهم الكامل للنص، ويسهم في تحقيق هذه الإستراتيجية استخدام الروابط المحددة بما يتوافق مع الغرض الفعلي للنص المكتوب المخطط له[17].

ويرى هاليداي أنه إذا فتشنا المعاني الكامنة في اللغة وجدنا عددا ضخما من الاختيارات تضمها شبكات مستقلة من الإمكانات، وهذه الشبكات تنسجم مع وظائف أساسية محددة للغة، وهذا يجعلنا قادرين على أن نصف الوظائف المختلفة للغة من حيث أن لها صلة وثقى بالتركيب اللغوي بدلا من الاتجاه بها وجهة اجتماعية أو نفسية. ومن هنا، لاحظ هاليداي سنة 1968 أربعة مكونات وظيفية أطلق عليها المكون التجريبي (experiential) والمكون المنطقي (logical) والمكون الخطابي (disco Ural) والمكون الكلامي الوظيفي (speech functional)، أو المكون التبادلي (interpersonnel)، ليستبدل هذا الطرح جزئيا سنة 1970 بطرح لا يبتعد عن الأول، يعيد تسمية المكون بالوظيفة التي تعادل عنده المعنى. و بعدها يدمج الوظيفتين الأولى و الثانية في وظيفة واحدة

سماها الوظيفة الفكرية(ideational) و يعيد تسمية المكون الثالث إلى الوظيفة النصية، بينما يبقى الأخير بذات التسمية و لكن يلغي كلمة المكون، و نجد الوظيفة التبادلية[18].

أما المكون الفكري؛ فتتمثل وظيفته في تجسد خبرة المتكلم بعالم الواقع سواء في ذلك العالم الخارجي الذي يحيط به، أو العالم الداخلي الذي يدور في أعماقه، و يمثل وعيه الخاص و هو يتفرع إلى مكونين آخرين فرعيين تجريبي: يعني بالتعبير عن العمليات و المشاركين والظروف و نحو ذلك، و آخر منطقي، يقوم بتزويدنا على مستوى هذه الوظيفة بالتعبير اللغوي عن العلاقات الجامعة، كتلك التي تكون بالربط أو التفريع أو الشرط.الخ، في حين يتحقق المكون التبادلي في ثلاث وظائف، من حيث أنه يبرز مؤسسة للعلاقات الاجتماعية بين الناس أو حفاظا عليها من جهة و كونه وسيلة للتأثير في سلوك الآخرين و توجيههم إلى أشياء معينة قولا أو فعلا من جهة ثانية، ومن حيث أنه تعبر عن موقف المتكلم قبولا أو لقطا أو تجريحا أو اندهاشا.....الخ

ولكن أهم مكوّن في نظر هاليداي و رقية حسن وهو المكون النصي؛ الذي يعتبر أنه المسؤول عن تحقق المكونين الأولين عبر نص يناسب السياق ويتميز بصفتين أساسيتين في تشكل نصيته وإنتاجه بصفة عامة وهما: الاتساق(cohésion)، والانسجام (cohérence)، أي يحققان التماسك بشكل عام؛ الذي "يجري على أعراف أهل اللغة في الاستعمال؛ بحيث يكون السامع أو القارئ قادرا على تمييز النص من مجموعة عشوائية من الجمل "[19].

كما قد يقوم المكون النصي زيادة على إحداث التماسك و تحقيق المكونان الفكري و التبادلي، أيضا له وظيفة إبراز عنصر معين في النص من خلال التمييز بعلامة دالة تفرد العنصر عن سواه، و تخصه بالأمر دون غيره كقوله تعالى: ((أنت فعلت هذا))[20].

وفي نهاية الأمر، يمكن القول أن هذا النموذج الإنتاجي يؤكد أن لا أهمية لعنصر من هذه العناصر على الآخر ولا أشد تجريدا منه، ولا ينفصل مستقلا على المكونات الأخرى، فكل المكونات الثلاث تتداخل خيوطها جميعا مكونة النسيج النصي؛ فنحن لا نملك حق القول أن لهذا الإنتاج-مهما كانت صورته أو طبيعته، مكونا فكريا دون أن يكون له مكون تبادلي أو نصي أو لذلك مكون نصي فقط؛ لأن كما قلنا سابقا نتداخل المكونات الثلاث و تتحاور يتناغم متناهي على مساحة الإنتاج النصي، إذ بالرغم من شعورنا بالتمايز فيها، إلا أنه يصعب بشكل يقترب إلى الاستحالة التفرد لأحد هذه المكونات بمهمة إنتاج النص، بدون الحاجة إلى المكونين الآخرين، الذين يدعيانه في سبيل تحقيق هذا الغاية، التي هي كذلك غايتها؛ ففي كل نص تعدد الوظائف والمكونات التي لا يجب النظر إليها، على تعددها-منعزلة، و لا لأي عنصر منها بمعزل عن الآخر؛ باعتبار أن النظر إلى هذه العناصر من زوايا متعددة، يساهم في التفسير الكلي للنص[21]. وهو البحث في وظيفة النص، و وظيفة عناصره.

ونشير هنا. إلى أنه في الاتصال المكتوب يختلف الكاتب و المتلقي عن بعضهما البعض زمانيا و مكانيا، كما أن عمليات إنتاج النص و استقباله لا تجري استنادا إلى التفاعل مباشرة؛ بل التعاقب بوصفها عمليات تتم عبر تباعد زمني، فلا بد من وجود عمليات التفاعل وتداخلها مع بعضها البعض، حتى ينشأ تعاقب مكونات التفاعل، و بدلا من اتصال القرب ينشأ اتصال البعد، و على ذلك فالكاتب و المتلقي ينجزان نشاطاتهما الاتصالية في سياقات جزئية مختلفة، لكن الاتصال من بعد لا يلغي التفاعلية فالشركاء يتفاعلون أيضا بواسطة النصوص المكتوبة بعضهم مع بعض، و يؤثرون في بعضهم البعض، و انطلاقا من هذه الخصوصية تنتج تغيرات أساسية سواء في إعداد النص، أو في فهمه.[22]

إذن جميع أفراد جماعة لغوية معينة، قادرين على إنتاج نصوص نظريا أو افتراضا على الأقل، فإن القليل هم الذين يملكون كفاية نصية لانجاز نصوص مقبولة أدبيا لذلك نجد فان ديك وجماعته يتحدثون عن وجود كفاية نية(compétence textuelle) تسمح لمراسل النص أن يفهم و يؤول عددا لانهائيا من الجمل المختلفة و لهذا فإن كفايته نصية، ذلك لأننا، سب فان دايك لا نتوصل بالجمل، بل عن طريق النصوص "[23]. و يجب التعامل مع النص ككلية منظمة تزاوج بين المحلي المنتظم في كلمات وجمل والكل المشكل في مستوى البيانات العامة للنص، بالاشتغال في محاور نظمية واستدلالية و ارتباط هذه البنيات مع بعضها البعض عن طريق الاتساق و الانسجام ومراعاة مبادئ القصدية والمقبولية والإخبارية والموقفية والتناصية، من أجل تكوين شبكة من العلاقات المتفاعلة فيما بينها، مستمدة نوعا ما من الدنيا الاتصالية الممتدة عبر مستويات متداخلة.

ولعله الأمر الذي أشار إليه ابن طباطبا:" للشعر أدوات يجب إعدادها قبل مراسه وتكلف نظمه..فمنها التوسع في علم اللغة، و الراحة في الفهم و الإعراب و الرواية لفنون الأدبي، والمعرفة بأيام الناس وأنسابهم و مناقبهم مثالبهم والوقوف على مذاهب العرب في تأسيس الشعر، والتصرف في معانيه، وفي كل فت قالته العرب فيه... وجماع هذه الأدوات كمال العقل الذي تميز الأضداد، ولزوم العدل و إيثار الحسن واجتناب القبح، ووضع الأشياء مواضعها"[24]؛ فـ" إنتاج النص"عملية معقدة، تمد بفروعها على عناصر عديدة، وعلى مقومات لا حصر لها و على خصائص عينية مختلفة؛ لعل أهمها تلك الخاصية التي لاقت نوعا من الإجماع وهي" الكفاءة" (compétence)، أو قدرة الإنسان على استعمال اللغة من خلال معرفته بقواعد لغته، باعتبارها "نظاما عقليا تحتيا قابعا خلف السلوك الفعلي"[25]، أي الأداء.

وأمام هذا التعقيد الإنتاجي ومعرفة الحقائق الابستيمولوجية لعملية إنتاج النص، على قارئ النص أن يجابه هذه العمليات بعمليات أكثر تعقيدا تجعله يدرك حقيقة الفعل الذي يمارسه عليه من شرح وتفسير وتأويل، أوغير ذلك.

2- في تأويل النص و إعادة إنتاج دلالة:

تحتل قضية التأثيرات المتبادلة بين النص وقارئه مكانة مركزية في استراتيجيات القراءة و التلقي، ونظرياتها المختلفة، لأن القول بوجود المعنى نابع من باطن النص و بنيته العميقة لا السطحية، فحسب ، و من ثمة منحت السلطة للقارئ، بكل أنماطه و تثمينه بمسؤولية استثنائية في إيجاد المعنى و تفسيره، و إعطائه مقروئية معينة، فكان ذلك فاتحة لانفتاح النص، وانعتاقه من قيود الانعكاس الإدراكي المشروط، في سبيل تحقيق هذا المعنى العميق، وفهم النص، بما يتعدى الدائرة المغلقة التي يحيل إليها التحليل اللساني للبنية أو البنيات التي ينطوي عليها العمل اللساني (النص)، على نحو يبدو معه متكيفا بنفسه، مبرر ا لذاته و غير متاح للبحث عن مرجعيات أخرى تقع خارج العلاقات اللسانية و الصوتية والتركيبية الموجودة في النص نفسه.

و" إذا كان المراد من الفهم، هو هذا الإدراك للمستوى الأول من الإخبار و الإفادة حيث يراد اللفظ لذاته كان التفسير نمطا من أنماط عملية الفهم "[26]، معنى ذلك أن التفسير يترتب دوما على الفهم، و هو إنجاز له و ممارسة و هما متلازمان تلازما دعا بعض المفكرين إلى اعتبارهما مترادفين.

فـ" يغدو التفسير بهذا المعنى مدخل النص إلى الوجود كنص معقول قابل للقراءة والفهم و الإدراك"[27]، حيث لا يسمح أن يبقى شيء غير مفهوم في مثل هذا الفهم النسقي

للنص، فان هذه الإستراتيجية في القراءة تتضمن أحداث استقبال أخرى: إضافة موسوعات ومراجع متخصصة ومكملة.

وعند تفسير النص كمحاولة أولى لفهمه، توظف المعارف استراتيجيا، مما يمكن مساندته بالفرضيات الأساسية التالية وفق طرح كل من فيهيفيجر وهاين منه:

أ-"يبنى" مفسر النص تمثيلا ذهنيا للأوضاع، التي تم إبلاغها عبر النص بواسطة المنتج، أي أن مفسر النص بتطبيقه لاستراتيجيات مختلفة يدخل النظام إلى المعلومات المأخوذة من النص، و يملؤها بالعلم الموجود من قبل؛

ب- يفهم مفسر النص دائما على إنها أوضاع من نوع معين، بكلمات أخرى: وضع النظام يكون دائما مستندا إلى أنواع من الموضوعات وحالات الاتصال و تفاعلات و نشاطات تفاعل؛

ج- عند بناء التمثيل الذهني في النص لا ينتظر المفسر إلى نهاية النص، بل يبدأ به منذ الكلمة الأولى في بناء القول،ويعد ذلك خطوة نتيجة التفسير الناشئة؛

د- عند بناء التمثيل الذهني في النص يعتمد مفسر النص على مواقفه و قيمه و قناعاته و آرائه، بهذا يأخذ بتقويمات، تكون ذات أهمية للنظام.

هـ- عند بناء التمثيل الذهني في النص يراعي مفسر النص وظيفية النص في السياق الاجتماعي؛

و- و يراعي مفسر النص كذلك وظيفة الانجاز النظري في النص، أي انه يعيد بناء قصد المتكلم نسبيا من سياق الموقف و سياق التفاعل؛

ز- يراعي مفسر النص إلى التفاعلات الاجتماعية، بأهدافها، وحوافزها، ومعاييرها؛

لأجل تفسير النص يتم لدى المتلقي استدعاء النظريات والفرضيات وحتى النظريات الشخصية التي جمعها بناء على خبراته الفردية في تعامله اليومي مع المحيط الطبيعي والاجتماعي، لبناء معنى النص[28].

ووفق هذه النطلقات، يبقى التفسير غير التأويل وأنهما مرحلتان في الشرح مختلفتان متكاملتان السابقة هي التفسير واللاحقة هي التأويل، وذلك بعيد عن الكتابة العلمية، إذ الخطاب العلمي يفسر ولا يؤول. أما في الخطاب الأدبي والإيديولوجي فلا يمثل التفسير إلا الشرح المتعلق بالمعنى الحرفي الواضح في المهمة الإخبارية في النص، والمفسّر، في هذا المستوى من التحليل، مكتف بالنص متأمل في بنيته ولغته، معرض عما سوى ذلك؛ "فإما أن نتزوي باعتبارنا قراء داخل انغلاق النص وأن نعامله كنص مستقل بدون عالم ولا مؤلف.

في حين يحاول بول ريكور-في الدرس المعاصر- "(Paul Ricœur)، على العكس من دلتاي تقليل التناقض والتعارض بين مقولتي التفسير والتأويل، ويبحث عن التكامل المتبادل بينهما، باعتبار التأويل هو " العلم بقواعد التفسير و هذا التفسير ذاته يفهم على انه تأويل مخصوص لنص معين"[29]؛ كما يرى ريكور أن مفهوم التفسير- أساسا قد خضع لتحويل أساسي، ساهم في نقله من مجاله الأصلي- الذي وضعه فيه دلتاي إلى مجال جديد، لأنه ارتبط بالنماذج اللسانية الخالصة فيقول: " فنحن "تفسير" النص أولا لدراسة علاقاته الداخلية وتحديد بنياته الخاصة، ثم "نؤوله" بعد ذلك بأن نمنح لهذه العلاقات و البيانات دلالة معينة "[30].

ونذكر أبو حامد الغزالي من الأصوليين (ت 505 هـ) الذي يقول: «التأويل عبارة عن احتمال يعضده دليل، يصير به، اغلب على الظن من المعنى الذي يدل عليه الظاهر ويشبه

أن يكون كل تأويل صرفا للفظ من الحقيقة إلى المجاز»[31] ، والذي يثير انتباهنا في تعريف الغزالي أنه أشار على أن التأويل احتمال قواه وعضده دليل، يقترب مقصده من الخطاب أكثر مما يدل عليه ظاهر اللفظ، وهو يعطينا سمات أخرى تقربنا من التأويل الأدبي فهو ينبهنا على أن التأويل يكاد يكون أغلبه صرفا، فهو يكون عدولاً من الحقيقة إلى المجاز.

ويقول الرازي (ت 606 هـ) وهو من علماء التفسير والكلام: «التأويل هو صرف اللفظ عن ظاهرة إلى معناه المرجوح مع قيام الدليل القاطع على أن ظاهره محال»[32]؛ فالرازي يهتم بظاهرة الدلالة اللفظية، والتي يرى من خلالها دلالة هذه الألفاظ، وذلك على اعتبار وجود قرينة أو دليل يقضي بعدم قبول الظاهر، إما عند علماء الحديث فنجد عند العلامة الأثير (ت 606هـ) وهو معاصر للرازي يرى أن: «المراد بالتأويل نقل ظاهر اللفظ عن وضعه الأصلي إلى ما يحتاج إلى دليل لولاه ما ترك ظاهر اللفظ»[33] .

ويقول الزركشي: " وأما التأويل فأصله في اللغة من الأول و معنى قولهم: ما تأويل هذا الكلام، إي إلا ما تحمله من المعاني.. وقيل: أصله من الإيالة، وهي السياسة؛ فكأن المؤول للكلام يسوي الكلام ويضع المعنى في موضعه"[34]، فالتأويل عند علماء التفسير يعني التفسير و الاجتهاد في استنباط المعنى المقصود من ظاهر الألفاظ أو مما توحي به دلالة تلك الألفاظ و تركيبها و ترتيبها، و "أول الكلام تأويلا و تأوله ،دبره، وقدّره،و فسّره".

وعليه، ارتبط التأويل في موروثنا بنوعين من العلاقات التي جمعت اللفظ بالمعنى وهما: النص والظاهر، فأما الأول فقد اختلفت في قبوله التأويل بمرجوحيته و قد كان هذا الاختلاف تابعا للاختلاف في تحديد مفهوم النص؟، كما مر بنا في موضع سابق. وأما الثاني الظاهر، علاقة جمعت لفظه بمعناه، فكان قابلا للتأويل بلا خلاف، على أن يكون قابلا للمعنى المؤول إليه،لآن التأويل في نهايته- نوع من أنواع الاجتهاد في نطاق النص لا خارجه. يقول السيوطي: "أو أما المشكل فالذي يأتيه الإشكال من وجود- منها غرابة لفظه"[35].

فالتأويل في معنييه اللغوي و الاصطلاحي يعني التقدير و التفسير و التبيين وهذا واضح مما نلاحظه في دراستهم كثيرا من الظواهر النحوية التي تتسق مع الأصول التي اتفقوا عليها سواء من استقراء النصوص أم مما تسرب لهم من المنطق و علم الكلام و من يتأمل كتب النحاة يجد أنهم كانوا مولعين بالتقدير و التأويل، فهم يذكرون تقدير الأفعال المتروك استعمالها، والأفعال جائزة الحذف، و أسماء تحذف وجوبا أو جوازا وأسماء تقدم و حالها التأخير وأخرى تؤخر و حقها التقديم ، كما يجدهم مولعين بالبحث في تفسير الأوجه الإعرابية المختلفة* للكلمة إذا أبهم عليهم تركيب الجملة و خالف ما اصطلحوا عليه من قواعد وأصول.

ويرى البعض أن التفسير يستهدف المعنى في وضوحه و جلائه و التأويل اجتهاد غايته إمداد القارئ بأكثر من معنى ، و في حدود معطيات النص، هذا ما يجعل التأويل –في الدرس المعاصر –قائما على إعادة ما نملكه من رصيد معلوماتي و بلورته في سياق التجربة لإعطاء سلطة النص صفة التحرر من قيود خلق الصور، التي تحفز الانعكاس الإدراكي لمعنى التأويل. إنه الأمر الذي يسعى إليه القارئ الحذق؛ ذا الفهم العالي و الحس اللغوي المدرب، النابع من واقع الكشف بعد الفهم والإدراك؛ "فالتأويل ليس فعلا يضاف مؤقتا إلى الفهم، إن الفهم هو دوما تأويل من هنا فالتأويل و هو الشكل المعلن للفهم "[36]؛ إذ ينصرف الذهن عن إطلاق لفظة التأويل إلى (المعنى)، و ذلك لأنها تعني التفسير والبيان فضلا عن معانيها الأخرى.

كما ظهر هذا المصطلح في مجال الدراسات النقدية المعاصرة، والذي برز في مجالات القراءة والتلقي في جميع الخطابات الأدبية واستعمل كأسلوب من أساليب فهم النصوص؛ باعتباره عملية" البحث داخل النص ذاته من جهة، عن الدينامية الداخلية المختبئة وراء هيكله الأثر الأدبي والبحث عن قدرة هذا الأثر على أن يلقي بنفسه خارج ذاته و يولد عالما

يكون بحق هو " شيء" النص. إن الدينامية الداخلية و الإلقاء الخارجي يشكلان ما يمكن تسميته نشاط النص، ومن مهمة التأويلية أن تعيد بناء هذا النشاط المزدوج للنص"[37]، كون هذا الأخير كيانا مستقلا بذاته عن المؤلف و المعنى القارئ، و هو أبدا أكثر أو أقل أو غير ما يقوله و يصرح به، انه إمكان للتفكير و بنيته للفهم أو مفترق للحقائق؛ ولهذا فالقارئ الجدير يقرأ دوما من ما لا يقوله النص، و كل قراءة جديرة تملك مصداقيتها ومشروعيتها، ومشروعية القراءة تستمد من اختلافها لا من تطابقها مع النص المقروء، إذ يشكل التأويل– هنا-مجموع الخطوات التي تقود إلى المطابقة بين رغبة المؤول وممكنات النص الدالة "[38]؛ لأنه لا ينطلق من فراغ، و لا يعتمد فقط على ذاتية المؤول المطلقة في غيبة المعطيات الأساسية التي تواضع و تعارف عليها العلماء لإدراك التظاهرة النصية والتي ساهمت بشكل فعال في تحديد مفهوم للنص، لأن"حضور هذا الوعي في النص لا بد أن يتخذ شكلا ما، هذا الشكل هو ما نسميه العمل الأدبي،على أن هذا الوعي المتشكل لغويا يخضع لشروط اللغة؛

فاللغة تحجب و اللغة تومئ و تراوغ و تتسع وتضيق"[39]، لأن اللغة عندما تغادر نظامها في سبيل الدخول إلى نظام النص؛ فما عادت أداة ناقلة بل باتت ذاتا مبدعة لما تقول وتلفظ، فنانة لما تخط وترسم، شاعرة لما تحس، وتعبر، و لقد أصبحت جزء من الأصل ما تم الإخبار بها عنه؛ فالنص على ذلك- فعلا آنيا يؤسس للتاريخ و يؤثر فيه، كما يصنع الثقافة بمجمل حيثياتها ومعطياتها المختلفة والمتنوعة، إنه قوة ضاغطة مضغوطة ذا طقوس متعددة، وتضاريس مختلفة متفردة.

إن التأويل ممارسة تنطلق من نظام النص لتعود إليه، وهي في ذلك لا تقوي على إزاحة حدود النظام، في إعادة إنتاجه من جديد و لا تقوى على رميها بدعوى الاستقامة والإثارة والتميز على خلق حياة من الحياة، نظام من النظام، نص من النص، إنتاج جديد من إنتاج أول، ولكنها تحول هذه المغامرة هذا النظام إلى عناصر لغوية بحيث تبدو منحا

دلاليا من منتجات النص؛ ذلك أن "التأويل يقوم على افتراض حوار بين (أنا) القارئ و(أنت) النص لفهم معنى النص الذي يبدأ بفهم أجزاء الوحدة اللغوية لمعرفة معنى الكل في حلقة أو دائرة متصلة "[40].

ومن هذا المنطلق يمكن اعتبار التأويل غاية- دائما لعلاقة جدلية بين إستراتيجية "المؤلف" والقارئ النموذجي بوصفه صورة القارئ كما يتوقعها الناص في نصه و " هذا الترابط بين المؤول والمؤلف باعتبارهما استراتيجيين واضحتين هو ما يقود من الناحية النظرية إلى الترابط بين التفسير والفهم والتأويل؛ بمعنى أن التأويل و التفسير يمكن أن يتخذ النص بنية لهما و ليس نتيجة؛ " لأن النص له قدرة على أن يحتفظ بعالم شبه معلق أو شبه مستقل وفي تعلق الكلمات بعضها ببعض بدا لعبد القاهر الجرجاني أنها جسد حي، وأن حيوية الجسد، كمجموع، متميز من حيوية أجزائه"[41].

وعلى الرغم من كون التأويل "شبكة معقدة من الإجراءات، وجهاز متطور من القنوات والأدوات، التي بواسطتها ..نستطيع التحكم في نظام التلقي بحيث لا نستعمل النص المقروء، ولكننا نحاول أن نستخلص من عناصره بناء على معالم سياقية ونسقية ،أيضا شبكة من المعطيات والقيم الدلالية التي تحول لنا من نحن قراء محترفون، أن نقارب النص المقروء انطلاقا من إجراء منهجي صارم"[42]، إلا أنه مغامرة وعملية متواصلة ترفض الخلفيات الفكرية والمنهاجية التي تساعد القارئ على إنتاج معنى للمضي في ظلها؛ من أجل تحقيق فهم وجود نصي مضى عصره و انقضى- والفكر هادم للفكر إذا ما سعى إلى تأسيس الجديد، لأنه نظرية ترى أن النص الأدبي "متعدد الوجوه وليست له حقيقة جوهرية واحدة، ومعاني الأعمال الأدبية باختلافها وتنوعها من حين إلى آخر إنما تجسد منطقا معينا يؤدي إلى تغيير منظم في التذوق الجمالي تبعا للتفسيرات والتأويلات المستخلصة من النصوص بما في ذلك تلك النصوص التي تسمح بتعدد الدلالات ولا ريب في أن التأويليين يختلفون عن غيرهم في عدم

إقصاءهم للفهم التاريخي بل يؤكدون على أن الملاحظة الجمالية ذاتها خاضعة للتغير التاريخي"[43].

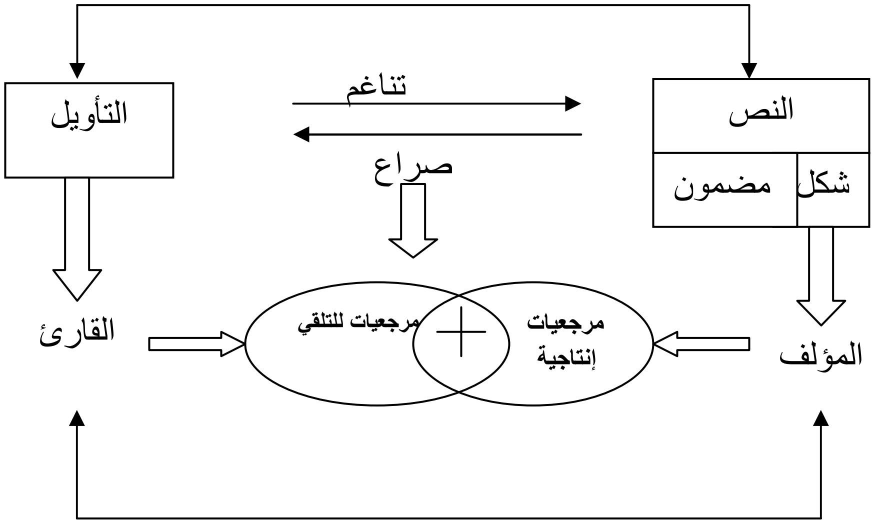

سياق النص و استراتيجيات التأويل

حوار متبادل

ويتبع دلتاي شيلرماخر في اعتباره أن "هدف النظرية التأويلية "فهم المؤلف أكثر مما يفهم نفسه". كما يرى مثله أن "هناك ارتباط وثيق بين الفهم و التأويل ، فإذا أردنا أن نفهم شخصا يجب علينا أن نقوم بتأويل أفعاله و كتاباته في عملية واحدة متجانسة"؛ إذ يبقى النص مجالا لتأويلات محتملة تتجدد باستمرار، فهو عالم يعج ببدائل تتيح للمؤول أن يلج إلى هذا العالم و هو مدمج بمختلف الأدوات التي بها يواجه النص.

إن التأويل قراءة ما بعد بنيوية تجعل القارئ منتجا و مبدعا بفعل القراءة، ومن ثم الكتابة لنص جديد حققه فعل التأويل، هو أساس الفهم، هذا الأخير الذي يبقى دائما إستراتيجية خاصة لاستيعاب التفاعل الحواري للنص، بوصفه مجموعة نصوص متداخلة تضرب

بجذورها في ثلاثية الزمن، ماضيا و حاضرا ومستقبلا، تمكننا من استحضار آفاق المجتمعات القرائية التي تفاعلت على جسد النص المقروء، فحققت تحاورا فيما بينها ينصهر مع أفق القارئ المعاصر، ما ينتج إمكانية فهم العالم من حوله، وفهم ذاته و الآخر معا في إطار البحث في تحقيق كينونة الوجود الإنساني، أنا أقرأ/ أفسر/ أتحاور/أتأول فأنا موجود.

وهو اعتراف بتعدد معاني النص بتعدد قرائه، مما يجعل القبض على المعنى الذي قصده الكاتب صعبا، إن لم يكن من مستحيلا، فتشييد معنى النص يتطلب من المتلقي إستراتيجية تأويلية تمليها إشارات المتن، وبالتالي يصير الضفر بالمعنى أشبه بالعثور على ذات القارئ عبر استدعاءات المعطل والمكسور فيه لحظة القراءة، مادام زمن التلقي هو زمن ولادة المعنى و إنتاجه، و لأن الانفتاح على عدد من القراء من طبيعة معنى النص، أصبحت مشكلة تملك النص أمرا لا يقل مفارقة عن التأليف، و هنا يتداخل حق القارئ بحق النص في نزاع يولد حركية التأويل برمتها، إذ تبدأ التأويلية حيث ينتهي الحوار[44]. أين تشكل اللغة لذاتها نسق المطابق، والعالم هو "آخرها"، لأن اللغة هي واسطة الإنسان في تكوين مفهوم العالم، تشكلها هذه المنظومات باعتبارها صيغ تأويل و حالات من علاقة الإنسان بالوجود/ بالحقيقة، التي هي هدف كل فعالية تفكيرية.

أما غادامير فإنه قد حسم هذا الأمر عندما اعتبر التأويل للنصوص لا يمكن أن يعيد بناء أحجارها كما وصفتها أحداثها الأصلية، بل يرى أن كل تأويل هو محاولة إعادة الحوار بين المؤول والنص، و لذلك فإذا نجح فانه يخرج من حدود علاقة فكر ينص إلى علاقة كينونة، يدخل فيها الفكر في الحوار مع التراث ذاته ومع الأحكام المسبقة و مع لغته الأولى طالما أن اللغة هي وطن الكينونة، وطالما أنه ليس هناك من علاقة بالكينونة إلا بالممارسة اللغوية، فهل يكون التأويل هو المفتاح السحري لحل أقفال التاريخ الماضية الموصدة أمام الحاضر الحداثوي ؟

يسعى التأويل إلى استنطاق النص المكبوت/ المضمر، الذي سكتت عنه ميتافيزيقا الحضور/ القول، باعتبار أن التأويل-أولا و أخيرا- تأويل للذات بوصفها نصا مقروءا، ولغة لها منطقها الخاص؛ فهي أي الذات التي يكون عليها التعويل، هي المرآة الكاشفة للنص في عمليات الفهم و القراءة و التأويل؛ لذلك يتطابق مع التأويل بأنه التعرف على قصد الكاتب من وجهة نظر المستقبلين البدائيين في موقف الخطاب الأصيل. و هو يرى أن الفهم لا يرتبط بإدراك الحقيقة التي ينطوي عليها تصريح أو تأكيد، بقدر ما يبحث عن الشروط الخاصة الكامنة في التعبير الذي بلوره هذا التأكيد أو التصريح، فهو يميز بين فهم محتوى الحقيقة وفهم المقاصد[45].

فعل التأويل مغامرة في دروب المعرفة الإنسانية على جسد البناية النصية، بنية السائل في أروقتها المتعددة و دهاليزها النيرة، وتضاريسها الفاتنة،وحقولها المتفجرة، فلا يظفر وهو المستقرئ المستقصي المكتوب بحرقة الحيرة، إلا بالجزء اليسير، يتبادل أدوار اللذة والمتعة مع النص دواله ومدلولاته، لأن "اللذة تأتي هكذا، إنها حضور من غير سؤال يستفسر عن موضوعها، اللذة ليست موضوعا، إنها هي ، وإنها لتتكشف دائما من غير سؤال، وسعادة الملتذ كالنور تأتي بقدح زناد الروح، فلا يدركها إلا من تحرر من نفسه جسدا و دخل في نفسه نصا"[46]؛ فقد صار النص قوة متحررة تتجاوز جميع الأجناس والمراتب المتعارف عليها، لتصبح واقعا نقيضا يقاوم الجهد و قواعد المعقول و المفهوم، إنه يمارس التأجيل الدائم، فهو تأخير دائب مبيت مثل اللغة، لكنه ليس متمركزا ولا مغلقا، إنه لا نهائي، لا يحيل إلى فكرة معصومة، بل إلى لعبة متنوعة و مخلوعة، تستهدف النص المفتوح، الذي يتجه إلى القارئ في عملية مشتركة و ليست مجرد استهلاك؛ لكن هذه المشاركة لا تعني القطيعة بين البنية و القراءة، و إنما تعني اندماجهما في عملية دلالية واحدة، لأن ممارسة القراءة إسهام في التأليف.

من المؤكد أن تأويل هذه الكلمات /الأحداث معجميا يرتبط أساسا بكيفية إدراكها وبطبيعة تصورها، مع العلم إن الإدراك و بالتالي التصور، يرتبطان بطبيعة تكوين الشيء المدرك في العالم الخارجي، والملاحظة أن الفهم والتأويل، وإن كانا يشكلان كتلة واحدة تمثل وحدة إدراكية بالمعنى الوارد، فإنهما يمكن تجزئتهما إلى كتل صغرى ذات طبيعة مشابهة.

ليغدو تأويل النص و فهمه عملية مرتبطة بما يزخر به من رمزية تعيد تشكيل رؤيتنا للذات والعالم، وتساعد على تقديم فهم جديد لها، وحسب ريكور، لا يتحقق الرمز ولا يكون إلا إذا تلاءمت العبارة اللسانية بمعناها الثنائي أو معانيها المتعددة مع نشاط التأويل، والذي يشير هذا النشاط هو "بنية قصدية لا تتألف من علاقة المعنى بالشيء، ولكن من خلال معمارية المعنى وعلاقة المعنى بالمعنى، والمعنى الثاني بالمعنى الأول، على أن تكون هذه العلاقة باسم المماثلة، وأن يختفي المعنى الأول حيث يظهر المعنى الثاني، إن هذا النسيج هو الذي يجعل التأويل عملية ممكنة مع أن حركة التأويل الفعالة وحدها قادرة على أن تردها ظاهرة"[47].

إن الفهم في علاقته بالتأويل يستند على عمليات الشرح والتفسير والتحليل والقراءة وهذه العمليات تتخذ أساليب لغوية تفكيكية وغيرها تتوسل بها إلى الفهم؛ لذلك جاز لنا أن نطمئن وفق هذا القول إلى أن التأويل معادل لفن فهم النصوص، إذ إنه ينتج نصا على نص وهو بذلك إعادة فهم تتحقق انطلاقا من وضع النص المبدع موضع سؤال يهدف إلى جعله نصا يمكن إعادة النظر فيه؛ فالتأويل إذن حوار مع النص المبدع، يجعل منه ذلك الحوار موضوع شرح وتفكيك؛ وهو بذلك لا يقر بالنص النموذج. لذلك فالتأويل ينشئ نصا بحثيا يستند إلى آخر إبداعي. إلا أن عملية التأويل هذه ليس اعتباطية؛ فهي مشروطة باللغة-أداة التأويل وبثقافة المؤول؛ فالنص عند الظاهريين لا يوجد إلا حينما يتحقق أو يصبح راهنا ولهذا ينبغي تبني وجهة نظر المؤول بالضرورة، لأن نظرة المؤول مرتبطة بنصه هو،

وبتدخلاته المحكومة بمكوناته الثقافية والمعرفية الخاصة التي قد لا تنسجم مع تأويلات القارئ وثقافته[48].

ولغة النص المبدع كثيرا ما تغيب المعنى بالرمز أو بالكناية؛ فيفزع المتلقي إلى ما لا ينتظره فتكون "خيبة التوقع" الحاثة على مزيد النظر و التفكر؛ إذ يقول الجاحظ متحدثا عن العلاقة بين ما يمكن أن نسميه العلاقة بين الغموض و الإبداع. يقول: " لأن الشيء من غير معدنه أغرب، و كلما كان أغرب كان أبعد الوهم؛ و كلما كان أبعد في الوهم كان أطرف؛ و كلما كان أطرف كان أعجب و كلما كان أعجب كان أبدع"[49]؛ إذ نتبين من خلال هذا القول أن الإبداع لا تنشأ من وضوح المعنى و قربه؛ وإنما على العكس من ذلك هو نتيجة صناعة للكلام تنجو به منحى الأغراب. و كل غريب يدعو إلى التأمل فيه حتى يفهم ويعجب به؛ فرغم تقارب الرؤى في حقيقة التأويل إلا أنه قد مر بمراحل ساهمت في محاولة ضبطه. فهناك مرحلة تضادية مع التأويل، وهذه المرحلة سادت فيها القصدية وكل ما له علاقة بسلطة الكلام الفردي، أو بالفكر المطلق، فكانت لها خيارات أما أن تفرض التأويل أو أن يتوقف في نقطة حرجة لا يجوز تخطيها.

ونشير في هذا المقام إلى قول ابن الأثير،الذي يتماثل إلى أبعد الحدود مع الطرح التأويلي المعاصر، إذ يقول: " واعلم أن الأصل في المعنى أن يحمل على ظاهر، ومن يذهب إلى التأويل يفتقر إلى دليل...لأنه عدول عن ظاهر اللفظ؛.. فالمعنى المحمول على ظاهره لا يقع في تفسيره خلاف، و المعنى المعدول عن ظاهره إلى التأويل يقع فيه الخلاف؛ إذ باب التأويل غير محصور، والعلماء متفاوتون في هذا، فإنه قد يأخذ بعضهم وجها ضعيفا من التأويل فيكسوه بعبارته قوة تميزه على غيره من الوجوه القوية "[50]؛ ذلك أن سلطة التأويل هي التي تشكل الظاهرة الإبداعية عندما تعتبر أن نتائج التأويل ليست إلا وجها من وجوه الحقيقة؛ فالنص يحمل ذلك الخطاب تفسيرا للذات و للوجود و للعالم: وهو تفسير يعبر عن فهم أو

رفض: قبول أو رد، في إطار محددات التأويل و التفسير، وتحديد العلاقة بينهما، لأن الكشف عن الحقائق ظني في التأويل، بينما يعد قطعيا في التفسير:

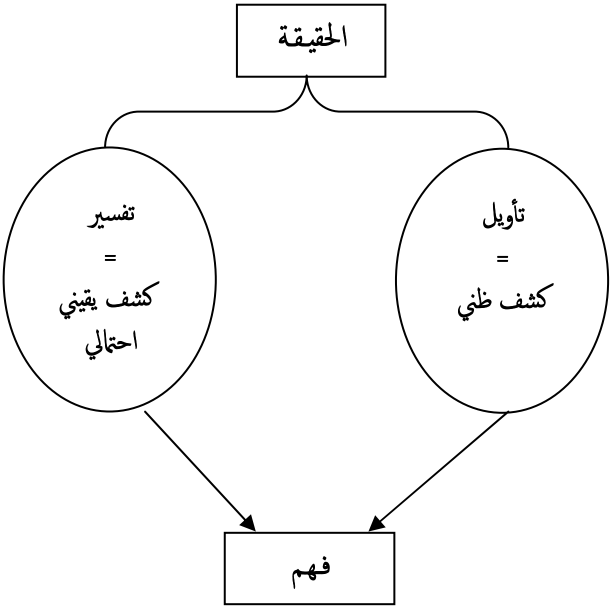

إن التأويل قراءة تعيد تشكيل فهمنا للنص في نسق لغوي مختلف عنه؛ فيحدث بذلك الكلام على الكلام، لأنه مشروط باللغة في نتائجها بثقافة المسؤول، ففي التأويل يتدخل المسؤول بصورة مباشرة، ليوجه عملية الفهم و يسجلها بلغته؛ و هذا التداخل يتحكم في قوانين نقدية: أولها القدرة على محاورة النص المبدع ومساءلته مساءلة عالمة لتقصي دلالاته وأساليب أدائها؛ وكثيرا ما يتحكم المسؤول إلى ثقافته لتسعفه في تنزيل النص في سياق خاص، هو الذي يعطيه هويته التاريخية الفنية، فمعرفة سياق النص تعمل على توجيه نتائج كل تأويل.

وخاتمة القول، لم يعد التأويل مجرد فرع معرفي يعني بتفسير النصوص والكشف عن القيم والقضايا والعلاقات التي ينطوي عليها- على اختلافها- بل ممارسة فكرية وقيمة وجودية لا تنفك عن تجربة الإنسان في الفكر والرؤيا، إنه استيعاب للنص من منطق أن هذا الأخير "إبداع للإمكان" في حقيقته الوجودية وبنيته التأويلية، لأنه(النص) يولد وهو يطرح نفسه للتأويل سلطة كامنة في بذرة النص ذاته؛ إلا أن تلك السلطة تدعم عبر القراءة العالمة للنص، لكن هذه السلطة ليست ذات طبيعة استبدادية؛ فكلما قرأت النص جعلته خطابا منفتحا أكثر على عوامل الثراء الدلالي، التأويل باعتباره سلطة تحرر الإبداع وتحرر النقد من أوهام الحقائق المطلقة؛ لأن التأويل فعل الوعي، ورد واع لفعل الإنتاج النصي (الإبداع).

الإحـــالات

[1] - عبد السلام المسدي, الأسلوبية و الأسلوب, ص 117.

[2] - حسن خمري، المرجع نفسه، ص 232.

[3] - فيهيفيجر و هاين منه، نفسه، ص 126

[4] - فيلي ساندريرس, نحو نظرية أسلوبية لسانية, ترجمة خالد محمود جمعة، ص163

[5] - يعقوب فام. البرجماتية, ص 193

[6] - مشال فوكو, نظام الخطاب, ص 66.

[7] - إلهام أبو غزالة, مدخل إلى علم لغة النص, ص64

[8] - فيهيفيجر و هاين منه، نفسه ، ص 127

[9] - إلهام أبو غزالة, مدخل إلى علم لغة النص, ص256

[10] - محمود أحمد نحلة, علم اللغة النظامي, مدخل إلى النظرية اللغوية عند هاليداي, ملتقى الفكر الإسكندرية,1998, ص147.

[11] - ينظر:إلهام أبو غزالة, مدخل إلى علم لغة النص, ص64

[12] - فيهيفيجر و هاين منه، نفسه ، ص 152.

[13] - إلهام أبو غزالة, مدخل إلى علم لغة النص, ص60.وينظر: عزة شبل محمد, علم لغة النص،ص46.

[14] - فولفجانج فيهيفيجر: مدخل إلى علم لغة النص,ص 12. وينظر:ص 117-119 من نفس الكتاب.

* إنتاج النص وأيضا تفسيره يجب أن تفهم على إنها نشاطات مدرجة بنيويا, وأنها تقوم بتلك الدوار التفسيرية المعينة للأشياء, وكان جوديش 1984 قد أشار بشكل جلي إلى هذا المطلب المنهجي لنظرة لغوية قائمة على نظرية الممارسة و نظرية الحدث. اعتمادا على الجوانب العامة في نظرية الممارسة وكذلك البحث في علم النفس الإدراكي.

[15] - فيهيفيجر و هاين منه، نفسه، ص 120.

[16] - سعيد حسن البحيري, علم لغة النص,ص 94

[17] - فولفجانج هاين منه وفيهفيجر: مدخل إلى علم لغة النص, ترجمة فالح بن شيب العجمي,ص, ص,323,345.

[18]- محمود أحمد نحلة، علم اللغة النظامي، كلية الآداب، ملتقى الفكر، الإسكندرية، 19898، ص 136-137.

[19]- Halliday.M.A.K ∝ R.Hassan,langage,contexte and text : Aspects of Language in social- Semiotic. Perfective Oxford ,university presse,1990,22,21.

[20]- الأنبياء، آية:62.

[21] - Halliday.M.A.K ∝ R.Hassan,langage,contexte and text. 23.

[22] - فولفجانج هاين فيهيفيجر: مدخل إلى علم لغة النص, ترجمة فالح بن شيب العجمي, ص 120-123.

[23]- أنور المترجي، المرجع نفسه، ص 84.

[24] - ابن طباطبا, عيار الشعر, ص 41- 43.

[25] - احمد مومن, اللسانيات, النشأة و التطور, ص 211.

[26]- الهادي الجطلاوي، قضايا اللغة، ص 26.

[27]- فريد الزاهي، النص و الجسد و التأويل، ص 76

[28]-فيهيفيجر وهاين منه، نفسه، ص158-159.

2- Paul Ricœur,De l'inter prétention, p 33

[30]- عبد الكريم شرفي، المرجع نفسه، ص 19. وينظر: عبد الناصر حسن, المرجع نفسه, ص 145.

[31] - الغزالي أبو حامد، المصطفى من علم الأصول، القاهرة، 1322، ج1، 387.

[32]-ينظر: فخر الرازي، أساس التقديس في علم الكلام، القاهرة، 1328هـ، ص: 222.

[33] - أنف الأثير النهاية في غريب الحديث والأثر، القاهرة، (د-ت)، ج1، ص: 62.

[34] - الزركشي, البرهان, المجلد الثاني, ص 148-149.

[35] - السيوطي عبد الرحمن جلال الدين, المزهر في علوم اللغة وأنواعها, شرح وضبط محمد أحمد المولى وآخرون, دار الجبل, بيروت,دار الفكر , بيروت, سوريا. ج 1, ص 235.

* ومن أشكال هذا الأسلوب من أساليب التأويل تتنوع إذ منها الحذف و الزيادة و التقديم و التأخير, و الحمل على المعنى, و التحريف و منها أيضا التقدير و الاتساع و الإضمار و الاستتار و الفصل و الاعتراض و التعليق و الإلغاء و غلبة الفروع على الأصول ورد الفروع على الأصول, و هذه الإشكال أو المظاهر التي سلكها النحاة في تأويل النصوص تدل دلالة واضحة على ارتباطها بالمعنى, إذ الحذف أو التقديم أو التأخير أو الاتساع أو الإضمار أو الحمل على المعنى أو أي شكل من هذه الأشكال لا يأتي في

الكلام إلا لغرض أو قصد و ما تأويله أو تقديره 'إلا مسلك لتفسير تلك الظاهرة و بيانها بعبارة أو كلمة أو جملة.

[36]- فريد الزاهي، النص و الجسد و التأويل، ص 106.

1- Paul Ricœur;du texte à l'action, P109

[38]- فريد الزاهي، المرجع نفسه، ص 77

[39]- عاطف احمد الدرابسة , قراءة النص الشعري الجاهلي, ص 96.

[40]- حاتم الصكر، ترويض النص، ص 109

[41]- مصطفى ناصف, اللغة و التفسير و التأويل, ص 75.

[42]- عبد المالك مرتاض : نظرية القراءة ، تأسيس للنظرية العامة للقراءة الأدبية ، دار الغرب للنشر و التوزيع ، وهران، الجزائر (د ت)، ص 180

1- إبراهيم محمود خليل :النقد الأدبي الحديث من المحاكاة إلى التفكيك، ص 130.وينظر:محمد شوقي الزين، تأويلات و تفكيكات، فصول في الفكر العربي المعاصر، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، ط1، 2002، ص27[43]

[44]- بول ريكور، نظرية التأويل- الخطاب و فائض المعنى، ص64. وينظر: دون إهده، المرجع نفسه ، ص 170.

[45]- بول ريكور، نظرية التأويل، ترجمة سعيد الغانمي، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، المغرب، ط1، 2003، ص52، 53. وينظر: دافيد جاس برسن ، مقدمة في الهرمينوطيقا، الدار العربية للعلوم، بيروت، ط1، 2007، ص 119، 120

[46]- رولان بارث, لذة النص, ترجمة: منذر عياشي,مركز الإنماء الحضاري, سوريا, ط1, 1992, ص07.

1 - Paul Ricœur,De l'interprétation, p3.

[48]- - ضياء خيضر ، المرجع نفسه, ص 15

[49]- - *أبو عثمان عمر بن بحر الجاحظ، البيان و التبيين، تحقيق عبد السلام محمد هارون، دار الجيل، بيروت، ج1، ص* 55.

[50]- ابن الأثير، المثل السائر، ج1، ص 32.